جدلية نشأة وتطور الاستشراق وتمظهر أنساقه

الدّينية، الاستعمارية، المعرفية، والنّسق العالمي الجديد

الدكتورة نعيمة رحماني جامعة تلمسان

الملخص:

عندما نرغب في خوض غمار دراسة ظاهرة الاستشراق، يتوجّب علينا البحث عن نشأة تلك الظّاهرة وتطورها. حتى يتسنى لنا معرفة تموقع الاحداث وتاريخها، وبالتالي نستطيع فهم الظاهرة في سياقها، ومن ثم إدماجها مع طرحنا في لحظة اتّصالنا بها. وهكذا يمكننا تحيين الظّاهرة وربطها بالخطابات المعرفيّة المختلفة لكلّ عصر، وتحديد مقاصدها أثناء ممارسة التّحليل النّسقي. لهذا سنسعى لعرض نشأة الظاهرة الاستشراقية بغية معرفة خلفياتها الثّقافيّة ومدى ارتباطها بالأنساق الدينية، السياسية، والمعرفية المضمرة.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق– النشأة– التطور– الأنساق

Résumé : Quand nous voulons étudier le phénomène de l'orientalisme, nous devons rechercher l'émergence et l'évolution de ce phénomène. Pour que nous puissions connaître la localisation des événements et leur histoire, nous pouvons ainsi comprendre le phénomène dans son contexte, puis l'intégrer au lancement au moment où nous le contactons. Ainsi, nous pouvons mettre à jour le phénomène et le relier à différentes épîtres épistémologiques de chaque âge, et définir leurs buts lors de l'exercice de l'analyse associative. Alors Nous nous efforcerons donc de présenter l'émergence du phénomène orientaliste afin de connaître son contexte culturel et sa pertinence par rapport aux modes religieux politiques et cognitifs. Orientalisme - l'émergence- Evolution - modes

جدلية نشأة وتطور الاستشراق وتمظهر أنساقه

الدّينية، الاستعمارية، المعرفية، والنّسق العالمي الجديد

الدكتورة نعيمة رحماني

جامعة تلمسان

عرفت السّاحة العلميّة جدلا كبيرا حول نشأة ظاهرة الاستشراق، فكلّ باحث يؤرّخ لنشأتها بحسب خلفيته المعرفية المبنية على القراءات السّالفة حول الموضوع. لهذا ارتأينا عرض آراء الباحثين ومناقشتها حتى يتسنى لنا معرفة تموقع الاحداث بتاريخيّة تقودنا إلى فهم ظاهرة الاستشراق في سياقها، ومن ثم إدماجها مع طرحنا في لحظة اتّصالنا بها. وهكذا نتمكّن من ربط الظّاهرة بمختلف الخطابات المعرفيّة، وتحديد مقاصدها أثناء ممارسة التّحليل النّسقي. نحاول إذن في هذا المقام معرفة متى نشأت ظاهرة الاستشراق؟ وما هي خلفياتها الثّقافيّة؟ وهل هي ظاهرة حديثة النّشأة؟ وماهي علاقتها بالنّسق الدّيني والنّسق السّياسي الاستعماري والنّسق المعرفي، والنّسق العالمي الجديد؟

يرى الباحث حسين فهيم أنّ بواكير الكتابات حول الآخر خاصّة الشّرقي تجلّت في كتابات المؤرّخ اليوناني هيرودوتس Herredotus الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، إذ كان أول من ألّف عن 50 شعبا من المجتمعات غير الاوروبية، ووصفها وجمع معلومات دقيقة عنها وتناول تقاليدها وعاداتها وملامحها الجسمية وأصولها السلالية؛ مثل مصر وقبائل البدو في ليبيا. وكان هيرودوتس أول من طرح فكرة التنوّع بين الشّعوب في

النّواحي الثّقافيّة واللّغويّة والسّلاليّة والدّينية. وتحدّث عن التّبادلات الثّقافيّة بين المجتمعات؛ إذ كتب مثلا أن الاغريق أخدوا عن النّساء اللّيبيات الثّياب والغناء والعربات ذات الخيول الاربعة.[1] وسار في الاتجاه نفسه الباحث محمود السمرة الذي اعتبر كتاب هيرودوتس من أشهر الكتب عن الشّرق.[2] لكن وبالعودة إلى قاموس أكسفورد الذي عرّف المستشرق بالعالم المتضلّع بلغات الشّرق وأدبه وتاريخه.[3] وبما أنّ المؤرّخ هيرودوتس لم يكن عالما بلغات المجتمعات الشّرقية[4] التي كان يكتب عنها، فلا يمكننا نعته بأول مستشرق كتب عن الشّرق، فقد كان يعتمد في كتاباته على المترجمين والرّواة. وقد لاقت كتاباته الكثير من النّقد بسبب عدم اعتماده على المصادر الموثوقة واكتفائه بما سمعه من حكايات أغلبها أقرب إلى الأساطير. في هذه الحالة يمكننا أن نموقع هيرودوتس في خانة الرحّالة المستكشفين، وليس في خانة المؤرّخين ولا المستشرقين. لأنه لم يكن يتقن اللّغة المصرية القديمة ولا اللّغات الشّرقية. وبالتّالي لا يمكننا إرجاع بدايات الاستشراق إلى كتابات هيرودوتس.

ومن جانب آخر نجد أن الباحث رائد أمير عبد الله قد أرجع نشأة ظاهرة الاستشراق إلى زمن الرّسول صلى الله عليه وسلم، عندما احتكّ المسلمون بأهل الكتب من نصارى، أو يهود.[5] ويسانده الرّأي الباحث مازن صلاح مطبقاني الذي أرجع نشأة الاستشراق إلى اللّقاء الذي حصل بين المسلمين والنّجاشي في الحبشة، وأيضا إلى الاحتكاك العسكري مع غير المسلمين في معركة مؤتة.[6] هنا يحضرنا مفهوم مصطلح المستشرق، الذي يقصد به الشّخص غير المسلم شرقيّا كان أو عربيّا، الذي يتقن اللّغات الشّرقية وله اهتمام بدراسة تاريخ الحضارات الشّرقية. واستنادا إلى هذا المفهوم لا يمكننا القول بأن مجرّد الاحتكاك بأهل الكتب من نصارى أو يهود، أو مع العسكريّين في أيّ غزوة يعدّ استشراقا. إلاّ إذا احتوت فئة غير المسلمين من يهود ونصارى وعسكريّين على أشخاص يتقنون اللّغة العربيّة، ويملكون رغبة قويّة في دراسة الحضارة الاسلاميّة، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الحضارة

الاسلاميّة لم تكن قد بدأت بعد عندما تمّ اللّقاء في الحبشة، ولا في الغزوة. لهذا نجد أنّ أمر نشأة الاستشراق في تلك الفترة مستبعد جدّا، خاصّة وأنّ غاية بعض المستشرقين منذ البداية هي التّشكيك في نبوّة الرّسول صلى الله عليه وسلم، وفي المصادر الاسلاميّة. الأمر الذي يُحيلنا إلى أنّ الاستشراق نشأ بعد اكتمال الرّسالة النّبويّة، وذلك حتّى يتسنّى لغير المسلم التّشكيك فيها. حتّى وإن استثنينا وجود أشخاص حاولوا جاهدين تكذيب ما جاء به الرّسول صلى الله عليه وسلم في فترة البعثة، فإنّ هدفهم لم يكن له علاقة بدراسة الحضارة الاسلاميّة كما أشرنا سابقا، بل مجرّد رغبة في دحض دين جديد غير مرغوب فيه، باللّجوء إلى القذف والسبّ والاعتداء وحتّى الحرب، ولكن بدون دراسات استشراقية كما شاع بعد ذلك.

وفي مقام آخر يذهب الباحث ساسي سالم الحاج إلى أنّ الغرب أظهر أطماعا ماديّة للبلاد المسلمة، من خلال الحروب الصّليبيّة التي سمّاها الغرب " حروب الردّة والاسترداد"، والتي دامت ثلاثة قرون؛ من عام 1097م حتى عام 1291م، انتصر فيها المماليك على الصّليبيّين في معركة عكا (فلسطين حاليا)، فكانت نهاية تلك الحروب الدمويّة. ولم يكن أولئك الذين شكّلوا قوام الحملات الصليبيّة يفقهون شيئا عن الدّين الاسلامي ذاته، بل انحصرت أفكارهم في الاعتقاد بأن معتنقيه وثنيّون وهراطقة ينكرون ألوهيّة المسيح، ولم تكن الحملات الصليبيّة ذات مطلب دينيّ كما يعرف، بل كانت رحلات متعة طويلة يتمّ فيها اصطحاب النّساء والأطفال، وهي واحدة من أكثر الصفحات خزيا في تاريخ المسيحيّة.[7] وأثناء خروج المسيحيّين تمّ الاستلاء على آلاف الكتب والمخطوطات العربيّة، وإرسالهم إلى المكتبات الغربية. وعند اطّلاع المهتمّين بدراسة الشّرق على تاريخ التّراث الإسلاميّ المسروق نشروا أفكار مزيّفة عن الدين الإسلاميّ، ووصفوا المسلمين بأبشع الأوصاف وجعلوهم يشبهون الحيوانات المتعطّشة للدماء.[8]

وقد ساند هذ الرّأي الباحث خالد بن عبد الله القاسم الذي ذكر أنّ نشأة الاستشراق حدثت بعد إخفاق الحروب الصّليبيّة في الوصول إلى أهدافها.[9] حيث اقتنع الصليبيّون أنّه لا يمكن إخضاع العالم الإسلاميّ بالقوّة، خاصّة بعد هزيمتهم، فنهجوا طريقا آخر أكثر دهاء مكنّهم من دراسة أحوال المسلمين ومعتقداتهم، والتعرّف على نقاط ضعفهم من أجل هدمها، ومن ثم السيطرة عليهم. وقد ذكر الباحث قول القسّ صامويل زويمر Samuel Zwemerمبشر امريكي (1876م- 1952م) عن أوّل مبشّر بين المسلمين مبديا إعجابه به قائلا: " وإلى يومنا هذا كلّ المستشرقين وكتاباتهم مدينون لريموند لولي Raimond Lully مبشّر كتالوني (1233م-1316م)، فقد قام بإقناع ملك اراغون Aragon[10] عام 1276م بإنشاء مدرسة لتعليم الرهبان اللّغة العربيّة، ثم أنشا بعدها معهد الدّراسات الاسلاميّة في مدريد، وبذل جهدا كبيرا في سبيل اثارة اهتمام الكنسية والملوك بتعلم اللّغات الشّرقية كالعربيّة والعبرية والكلدانية على امتداد ستة اعوام 1294م-1300م، وقد كلّلت جهوده بالنجاح من خلال إقرار البابا انشاء كراسي في خمس جامعات غربية من اجل دراسة تلك اللّغات. وكانت من هنا بداية الاستشراق الفعلي".[11] ويشاطرهما الرّأي الباحث محمد الشّرقاوي الذي ذهب إلى أنّ الاستشراق بدأ بداية حقيقية منتظمة بقرار من المجمع الكنسي في فيينا بالموافقة على تدريس اللّغات الشّرقية في خمس جامعات أوروبيّة كبرى هي؛ باريس، أكسفورد، الجامعة البابوية في روما، بولونيا بإيطاليا، وسلمنكا بإسبانيا سنة 1312م.[12]

يمكننا القول أنّ هذه الآراء الأخيرة هي الأرجح والأصحّ منطقيّا لبداية التأريخ لنشأة الاستشراق، أثناء وبعد الحروب الصّليبيّة وليس قبلها. إذ أنّ ريموند ليلي ساهم في ترغيب تعلّم اللّغات الشّرقية من قبل الغربيّين، وأنشأ كراسي لتحصيلها في أكبر الجامعات الغربيّة. وهذا الأمر يتماشى وتعريف قاموس اكسفورد لظاهرة الاستشراق والمستشرق، حتّى

وإن كانت الغاية طبعا الاطّلاع على تراث حضارة المسلمين والإسهام في انتشار المسيحيّة. استكمالا للموضوع نجد أنّ ربط التبشير الدّيني بسياسة الملوك المسيحيّين يدلّ على وجود علاقة وثيقة بين النّسق الدّيني المتمثّل في الكنيسة والنّسق السّياسي السّلطوي المتمثّل في الملوك وهدفها استحواذ وهيمنة الغرب على الشّرق. بيد أن تلك الحقبة عرفت عظيم الصّراعات الدّينية بين المسلمين والمسيحيّين، خاصّة في بلاد الأندلس، حيث يذكر الباحث أحمد سمايلوفيتش في السّياق نفسه: "منذ أن اتّصل العرب بالغرب عن طريق الأندلس بدأ أصحاب الفكر فيه يعادون المسلمين ويهاجمونهم. وظهرت بعثات غربية إلى المشرق عكفت على دراسة الاسلام وكيفيّة مهاجمته."[13] لقد ولّد هذا الاحتكاك رغبة الغرب وحاجتهم لنهل ذخائر الحضارة الاسلاميّة من طبّ وفلك ورياضيّات، ولا يتمّ ذلك إلاّ بتعلّم اللّغة العربيّة طبعا، وطباعة الكتب، حيث صدر أوّل كتاب مطبوع عام 1457م، وبدأت عمليّة تشويه التّراث الإسلاميّ إذ انتشرت المؤلّفات التي شاع فيها غريب الأفكار والتحيّز الثقافي والاستعلاء العنصري.[14] وسقطت الأندلس بعدها عام 1492م على يد الإسبان، الأمر الذي جعل دفّة النهضة تتّجه نحو الغرب. واستمرّ تأسيس كراسي اللّغة العربيّة، حيث تأسس عام 1599م كرسي اللّغة العربيّة في فرنسا Collège de France، ثم تأسّس بعدها الكرسي الثاني للّغة العربيّة في هولندا في جامعة ليدن عام 1613م، ثم في بريطانيا في جامعة كمبريدج عام 1633 .[15] وفي عام 1697م ظهر في فرنسا عمل ضخم هو مكتبة الشرق لبارتملي ديربيلوBartélemy d'herblot ، حيث تمّ لأوّل مرّة جمع مادّة هائلة من الحقائق عن الشرق لتكون في حوزة الأوروبيين على شكل دائرة المعارف.[16]

ورغم ظهور كراسي تعليم اللّغة العربيّة منذ القرن 14م وحتى القرن 17م على يد المبشّر ريموند ليلي في أكبر الجامعات الغربيّة، إلاّ أنّ الباحث رائد أمير عبد الله يذكر أنّ الباحث إدوارد سعيد أعاد بداية الاهتمام المعرفي بالشّرق إلى نهاية القرن الثامن عشر، فحسب رأيه

برز الاستشراق أوّلا في إنجلترا عام 1779م، ثم في فرنسا عام 1799م، وأدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسيّة عام 1838م،[17] وهذا يتنافى مع ما ذكرناه آنفا حول إقامة كراسي تعليم اللّغة العربيّة في المدن الغربيّة.

لقد عرفت الدّراسات حول الشّرق تطوّرا ملحوظا في المضمون، فقد كانت تقتصر في الوهلة الأولى على دراسة التّراث الإسلاميّ، والتّشكيك في نبوّة الرّسول صلى الله عليه وسلم وفي المصادر الاسلاميّة، رغم وجود نسبة من الدّراسات الرصّينة التي منحت الكثير للمسلمين وعرّفتهم بخبايا تراثهم العظيم؛ إلاّ أنّ ظهور الثّورة الصناعيّة (1750م-1850م)، قد ساعد على إنماء دوافع أخرى ذات علاقة بالتوسّع الجغرافي بغية جلب الموارد الطبيعية من خارج أوروبا للاستخدام الصّناعي، وفتح أسواق عالميّة لمنتجاتها. وقد أدّى ذلك إلى دفع حركة الاستعمار حيث "اعتقد الأوروبيّون وهم يسيرون في زحفهم المظفّر عبر القارّات الأخرى بأنّ الفضل في نجاحهم يرجع إلى تفوّق أنظمتهم ودينهم وثقافتهم"،[18] وقد منحهم ذلك التفوّق الإحساس بالتعصّب العنصري والاستعلاء، ذلك التعصّب الذي يعتبر المجتمعات دونيّة، وأقلّ مرتبة، ودون مستوى البشر، ويبرّر استغلالهم للسكّان في ظلّ ظروف لا يتمّ قبولها في البلد المستعمر ذاته.[19] حيث ورد في كتاب الاستشراق للباحث محمد قدور تاج على لسان المستشرق الفرنسي أرنست رينان Ernest Renan(1823-1892): " أنّ كلّ شخص عنده شيء من التعلّم في عصرنا هذا يلاحظ بوضوح أنّ دونيّة المسلمين الرّاهنة، وانحطاط الدّولة والانعدام الثقافي لديهم ناجم عن تلقّي ثقافتهم وتربيتهم من الدّين الاسلامي فقط." [20]ناسيا أو متناسيا ما حققته حضارة الاندلس من رقيّ وازدهار ثقافي. وجاء أيضا في كتاب الاستشراق والخلفية الفكريّة للصّراع الحضاري للباحث محمد محمود زقزوق على لسان المستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون Maxime Rodinson(1915-2004) : "في القرن التاسع عشر كان الشّرق الاسلاميّ لا يزال

عدوّا، ولكنّه عدوّ محكوم عليه بالهزيمة، وكانت البلاد الشّرقية أشبه بالشّهود المنهارين لماض عريق....فقد كان المرء يستطيع أن يستمتع بترف امتداحهم في الوقت الذي كان فيه السياسيّون ورجال الأعمال يفعلون ما في وسعهم للإسراع في انهيارهم....إنهم يفقدون في خلال عملية تحديثهم نكهة الغرابة التي كانت مبعث سحرهم." [21]لقد ساهمت الدّراسات الاستشراقية في ضمّ مهارات خبراء جلّ العلوم الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والانثروبولوجيا والسياسة والتاريخ والفنون، والحكّام صانعي القرار، والعسكريّن الذين ساهموا في توسيع الهوّة بين الشّرق والغرب وابتداع عقدة الأنا والآخر.

ويحضرنا في السّياق نفسه ظهور نظرية تشارلز داروين C. Darwin(1809م-1883م) عام 1859م، والتي أثرّت كثيرا في توجّه الدّراسات الاستشراقيّة في تلك الحقبة وبعدها، حيث تمّ تفسير التباين القائم بين المجتمعات على أساس التقدّم والتحضّر، فزادت الهوّة بين الغربي والشّرقي باعتبار هذه النظرية تنادي بالانتخاب الطّبيعي وحفظ السّلالات المفضّلة. وبحسب داروين فإنّ "كلّ الكائنات تنتج أفرادا أكثر ممّا يحتمل أن يعيشوا بكميّات الغذاء الموجودة، ولا يبق ويتكاثر سوى الذين سيتغلّبون على منافسيهم. والهدف هو بقاء النّوع أو البقاء للأصلح."[22] لقد قامت هذه النظريّة بالتّرويج المطلق للتحيّز العنصري، والمناداة للتّمركز حول السّلالة والتعصّب العنصري، وهي أفكار تدعّم الاستعمار وتضفي عليه شرعيّة الممارسة للإبقاء على النوّع الأصلح. ونتيجة لتعميم وتطبيق تلك النظرية وغيرها ظهرت كتابات استشراقية تحمل في طيّاتها نسقا دينيّا دفينا، ونسقا سلطويّا سياسيّا واستعماريّا ظاهرا، فقد كان معظم كتّابها من الحكّام والاداريين الذين يشتغلون داخل المستعمرات. ثمّ ظهرت المادّة البحثيّة الحقليّة التي ساعدت على تطوّر النظريّات، وصنعت تلاحما بين الحقل والنظرية، من أجل دراسة الشّعوب المستعمرة ميدانيا ولغايات استعمارية طبعا. حيث كتب موريس فيولويت، Maurice Violette (1870م-1960م)

الحاكم الليبرالي العام للجزائر: " إنّ سياستنا في الجزائر. تظلّ محكومة بالانهيار إذا زعمت مبدئيّا أنّ المواطن الأصلي لا يرقى في وجوده إلى الاوروبي مهما كان مبلغه من التحضّر والثقافة...ذلك الكبرياء العرقي...المترسّخ ..الذي يصنّف البشر إلى رعايا وأسياد...وهذا يمثّل نظريّة الأعراق التي اختلقت وأرسيت قواعدها في سبيل الاعلاء من شأن الأعراق المنتخبة. تلك النظريات التي طالما أثارت حنقي."[23] وفي السياق نفسه أقيم في عام 1900م مؤتمر بعنوان " علم الاجتماع الاستعماري" اكتنف موضوعه جدليّة بين النّسق المعرفيّ النظريّ وبين النّسق السّياسي الاستعماري كواقع مجتمعيّ تاريخي، "فالسياسة تمدّ المعرفة بموضوعها والاتجاه الذي ينبغي أن تسير فيه، والمعرفة تمدّ السّياسة بالمعطيات التي تساعدها على تنفيذ مشروعها وعلى تبرير مشروعيّتها كما تمدّها بصيغة للتعبير عن أهدافها... "[24] وهكذا استنتجوا أنّ حكم السكّان الأصليّين لا يستقيم إلّا بمعرفة عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ومقوّماتهم ومصادر قوّتهم، من أجل احكام قبضتهم عليهم. وفي خلال دراساتهم الاستشراقية حول السكّان الأصليّين للمجتمعات المستعمرة تبيّن لهم أنّ العرق هو الذي يحدّد الذّكاء والسمات الثّقافيّة والخصائص الأخلاقية، وأنّ عرقهم هو الأجلّ والأفضل، وهذه الأفضلية تدعّم علاقات الاستغلال والتبادل اللامتكافئ مع الشعوب الخاضعة التي تختلف فيزيقيّا عن المستعمر.[25] ويحضرنا قول الطبيب يوجين بوديشيه "بوجوب اجتثاث العرب في صورة مناضرة لتلك التي انتهجها الأنجلو أمريكين في القضاء على هنود أمريكا"[26].

كما تمّ نعت المجتمعات المستعمرة بالمجتمعات القدريّة الجبريّة،[27] التي تتميّز بالنّظرة القدريّة لأمور الحياة، حيث يعتقد السكّان أنّهم عاجزين عن التّأثير في مجرى الأحداث، بسبب نزعة المحافظة عندهم. ولكن في واقع الأمر هذا لا يمثّل اعتقاد السكّان الأصليّين، بل هو اعتقاد المستشرقين أنفسهم الذين يخدمون النّسق السّلطوي الاستعماري، والذين يحيكون مؤامرات لإفشال تلك المجتمعات واحباطها وجعلها خاضعة لتلك القدرية. إنّ سمة القدريّة لا تمثّل

قيمة مطلقة لصيقة بتلك بالمجتمعات، بل هي واحدة من بين العديد من القيم التي يؤمنون بها ويطبّقونها مثل؛ المشاركة في اتخاذ القرارات، ورفض الواقع المرير الذي يعيشونه، والبحث عن حياة أفضل بانتهاج منطق التغيير الذي برز على شكل حركات تحررية تنشد الحرية إثر حراك ثوري واسع النطاق؛ ذلك الحراك الذي غيّر مجرى الأحداث التاريخية، فهل يمكننا أن ننعتها بالمجتمعات القدريّة في ظل التّغييرات التي اعتمدتها؟ لقد أغفلت نظريّة القدريّة الجبرية درجة التنوّع والمرونة والإبداع وعدم الاتّفاق الموجود في كلّ المجتمعات الانسانية. وهذا الإغفال يدحض تلك النظريّة المبنيّة على حتميّة الجمود والثّبات، كما تدحضها أيضا نظريّة النسبيّة الثّقافيّة التي تعتبر أن "لكل ثقافة أو مجتمع منطقه الخاصّ وتماسكه الدّاخلي اللّذان يمكن في ضوئهما تفسير عاداته وتقاليده"[28]. فهي تأخذ بتنوّع الشّعوب واحترامها ودراستها وتفهّمها ودراسة أوجه التّشابه والاختلاف من أجل تفسير سلوكات الأفراد لا من أجل استعمارها. فلكلّ مجتمع ثقافة تتناسب مع خبرته الإنسانيّة ومع بيئته ومع ظروفه التاريخية....ولا يحقّ لنا إصدار الأحكام على الآخرين من منطلق فكرة التعصّب السّلالي والحكم عليهم بالمجتمعات البدائيّة والمتوحّشة. ويقول في هذا الصّدد عالم الانسانيّات البريطاني إدوارد إيفانز بريتشارد Evans -Pritchard (1902م-1973م) " إن كلمة البدائيّ هي اختيار غير موفّق لوصف المجتمعات غير الأوروبية والواقعة تحت طائلة الاستعمار الغربي، لقد أصبحت اصطلاحا واسع الانتشار إلى حدّ لا يمكن تجنّبه.[29] حيث تفترض صفة البدائيّ وجود تماثل[30] وإجماع عامّ يميّز المجتمعات البدائية، ويحصرها في بوتقة التخلّف. فأين هي إذن الخصوصيّة التّاريخية لكل مجتمع؟ تلك الخصوصيّة التي تُعرّفنا على السّمات المميّزة لكلّ ثقافة بغية استبعاد التعميمات التي وقعت فيها جلّ الدّراسات الاستشراقيّة، وفي الوقت نفسه هي لا تفيد في معناها رفض الآخر، أو التقوقع داخل الذات، بل تحترم المجال التداولي الاسلامي الحامل لعقيدة المجتمع ولغته ومعرفته. كما وأين هي الشعارات الغربية التي تنادي بالحرية والمساواة والأخوّة؟؟؟

بقيت الدّراسات الاستشراقيّة أو بالأحرى "العلوم الإنسانيّة في آسيا وإفريقيا الشّرقية"[31]أو "الدّراسات الشّرقية"، أو "دراسات المناطق"،[32]كما يطيب للاستشراقيين تسميتها حاليّا، بقيت متأثّرة بالمركزيّة الغربيّة نسبيّا في القرن 20م، وذلك بسبب الحركات التحرّريّة المناهضة للظّلم والاستبداد التي ظهرت نتيجة النّسق الاستعماريّ، والتي كان لها الفضل في جعل الكثير من المستشرقين يعيدون الفحص والتّدقيق في النّظريات التي تبنّوها سابقا. وإثر ذلك برزت دراسات اعتنت " بدراسة الحضارات الإنسانية في جزئيّتها وليس في مجملها، كوحدات متنوّعة لكلّ منها كيانها الخاص والمميّز عن الآخر، سواء في تكوينه التّاريخي أو نظمه الاجتماعية."[33] ونتيجة لذلك أيضا تمّ توظيف مصطلحات تعبّر عن التقاء الثّقافات المختلفة واحتكاكها في إطار التّوفيقيّة، مثل مصطلح التثاقف أو التّزاوج الثّقافي الذي ظلّ مستعملا لسنوات ثم غيّر مؤخرا من قبل المركز القومي للترجمة بمصطلح التكيّف الثّقافي، والذي يُقصد به" تلك الظواهر التي تنتج عندما يحدث اتّصال ثقافيّ مباشر بين جماعات ثقافيّة مختلفة، وما يترتّب على ذلك من تغيّرات في الأنماط الثّقافيّة الأصليّة لهذه الجماعات."[34] ينشأ إذن ذلك التغيّر حين تدخل جماعات من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال مباشر؛ ومثال ذلك اتّصال الشّعوب الأوروبيّة بالشّعوب الواقعة تحت سيطرتها، حيث يفضي ذلك الاتّصال إلى احتكاك ثقافة بسيطة مع ثقافة مركّبة. ومن المفروض أن يتمّ الأخذ والعطاء بين الثقافتين، أو رفض للسّمات الثّقافيّة الدّخيلة ومناهضتها.[35] ولكنّ المفهوم أصبح ملازما للسّيطرة، وبدل الأخذ والعطاء بين الثقافتين تمّ فرض الاندماج الكليّ في الثّقافة المستعمرِة. وقد حدث ذلك في الجزائر عندما فرضت فرنسا فرنسة الجزائر، وجعلت شعارها "الجزائر فرنسية"، فأصبح التكيّف الثقافي مستحيلا بمفهومه الأصحّ وجائزا بمفهومه المستعار الذي يسمح بسيطرة الثقافة الدخيلة وفرضها ما يسمى بظاهرة الاستيعاب التي يتم فيها امتصاص الجماعة الخاضعة داخل الجماعة المسيطرة.[36]

وفي القرن نفسه، طفت بعض الدّراسات الاستشراقيّة الموضوعيّة التي نادت بتقديم وصف للمجتمعات الشّرقية، وتحليلها للمفاهيم والتصوّرات التي لدى الأفراد ذاتهم وكما تتمثّل في لغتهم، من دون إقحام مفاهيم الباحث الغربي واتجاهاته التحليليّة. ونتيجة لذلك برز عدد من المستشرقين الغربيّين الذين رفضوا خدمة حكوماتهم الاستعمارية وكانت لهم اعمالهم البحثية الخاصّة وآراءهم المستقلة. ولكنّ أغلبهم بقي مرتبطا بأفكاره الايديولجية؛ حيث جاء على لسان الباحث المغربي أحمد في كتاب الباحث حسين فهيم: " أن هؤلاء المستشرقين لم يستطيعوا أن يتجاوزا بصفة كاملة الرّؤية الايديولوجيّة للبرجوازيّة الأوروبيّة، وظلّ فكرهم في كثير من عناصره يدور في فلك نزعة المركزيّة الأوروبية، هذا فضلا عن بعض العناصر الإيديولوجية النّي ظهرت عندهم، بفعل وجودهم في مرحلة تاريخيّة أخرى غير التي عرفها الاستشراق في بدايته."[37]

ورغم وجود الحركات التحرريّة في المستعمرات ورغم ظهور فئة المستشرقين الموضوعيّين إلاّ أنّ القوى الاستعمارية حرصت على تكبيل المجتمعات التي حصلت على استقلالها بنسق عالمي جديد يقوم على سيطرة المركز، ويكرّس تبعيّة المجتمعات حديثة الاستقلال بالمجال الاقتصادي الغربي، بحيث يبقى النّسق الاستعماري ساري المفعول في المجال الاقتصادي والسّياسي والثقافي للدول المستعمَرة، فلم يكن استقلال تلك البلدان سوى جزءا من صراع حضاري معقد. وعلى إثر ذلك تحوّلت الدّول المستعمِرة إلى دول سبرنيطيقية[38]، تتحكّم في الشعوب المستضعفة عن طريق عودة مخرجات نظام هذه الدّول إلى المتحكّم ليغذّى بها على شكل مدخلات، تمكنّه من التنبؤ بالسّلوكات المستقبليّة لتلك الدّول. وإذا أسقطناها على الجانب الاقتصادي تتحول ثروات المجتمعات المستعمرَة إلى مدخلات للدّول المستعمِرة، وهكذا تكون تغذية مرتدّة أو رجعيّة ليست فقط على مستوى المعلومة بل حتّى على مستوى عودة الثّروات والخيرات إلى المستعمِر. وبسبب التبعيّة تخلّفت الدّول الشّرقية المستعمرَة أثناء تقدّم الدّول

الغربيّة المستعمِرة، الأمر الذي أدّى إلى بقاء المركز والتابع، وما تخلّف العالم الثّالث إلاّ بسبب توسّع النّظام الرأسمالي العالمي الاستعماري، وما استبدال كلمة المجتمعات الشّرقية المتوحّشة بالمجتمعات النّامية والمتخلّفة بعد الحرب العالمية الثانية إلا "تأدبا ونفاقا".[39] ويأتينا الاعتراف على لسان المسشترقين أنفسهم حيث يقول المستشرق الألماني استفان فيلد Stephan Wild 1937م في كتاب الاستشراق للباحث محمد محمود زقزوق: "... توجد جماعة يسمّون أنفسهم مستشرقين سخّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لابدّ من أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكلّ صراحة."[40]

وهذا يجعلنا نؤكّد أنّ معرفة المستشرقين بتاريخ الحضارات الأخرى جعلت استغلالهم والسيطرة عليهم أمرا في غاية السهولة، فالمعرفة منحتهم قوّة السيطرة وهنا تظهر العلاقة القويّة بين النّسق المعرفي والنّسق السّلطوي.

الهوامش والمراجع:

1-حسين فهيم، قصة الانثروبولوجيا، عالم المعرفة، الكويت، 1986، ص34

2-محمود السمرة، غربيون في بلادنا، بيروت، المكتبة التجارية للطباعة والنشر، 1969م، ص09

3-المرجع نفسهّ، ص 72

4-بسنت جميل، هيرودوت أبو الاكاذيب وليس أبو التاريخ، مقال استخرج من الرابط http://www.youm7.com/story بتاريخ 2018/01/02 على الساعة 20:58

5-رائد امير عبد الله، المستشرقون الالمان وجهودهم تجاه المخطوطات العربيّة الاسلاميّة، مجلة كلية العلوم الاسلاميّة، المجلد الثامن، العدد 1/15ّ ، 2014م، ص4

6-مازن صلاح مطبقاني، نشأة الاستشراق، استخرج من الرابط http://www.madinacenter.com بتاريخ 20185/01/03 على الساعة 11:38

7- ديريك هوبود، التصورات الجنسية عن الشرق الاوسط، البريطانيون والفرنسيون والعرب، ترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء، هيئة ابة ضبي للثقافة والتراث، ابو ضبي، 2009، ص19

8-ساسي سالم الحاج ، نقد الخطاب الاستشراقي، ط1،ج، 1دار المدار الإسلاميّ، 2002م، ص 44

9-خالد بن عبد الله القاسم، انحرافات الفلاسفة والباطنية والزنادقة في دائرة المعارف الاسلاميّة، استخرج من الرابط..*faculty.ksu.edu* بتاريخ 2018/01/03 على الساعة 17:58 ، ص2

10-تقع مملكة أراغون في الشمال الشّرقي لإسبانيا ومن المرجح ان يكون قد حدث الامر في عهد خايمي الاول (1213م-1276م) أو ابنه بيدرو الثالث (1276م-1285م) فلم يذكر القسّ اسم الملك. للمزيد من المعلومات انظر الموسوعة العربيّة من الرابط https://www.arab-ency.com

11-خالد بن عبد الله القاسم، مرجع سابق، ص2

12-محمد عبد الله الشّرقاوي، الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، 2016م ، ص 84

13-احمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق واثرها في الادب العربي، القاهرة، دار الفكر العربي، ص71

14-حسين فهيم، مرجع سابق، ص64

15-عبد الجبا ر ناجي، الاستشراق في التأريخ، المركز الاكاديمي للأبحاث، بيروت، 2013، ص 218

16-ديريك هوبود، مرجع سابق، ص21

17-رائد امير عبد الله، مرجع سابق، ص 5

18-حسين فهيم، مرجع سابق، ص 91

19- شارلوت سيمور سميث سيمور سميث، موسوعة علم الانسان، ترجمة واشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، ط2، 2009، ص108

20-محمد قدور تاج، ص، 130

21-محمد محمود زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصاع الحضاري، دار المنار، ط2، 1989م، ص46

22-حسين فهيم، مرجع سابق، ص94

23-ديريك هوبود، مرجع سابق، ص 118-119

24-حسين فهيم، المرجع السابق، ص 102
25-شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق، ص218
26-ديريك هوبود، مرجع سابق، ص117
27-المرجع نفسه، ص427
28-شارلوت سيمور سميث، المرجع السابق، ص514
29-حسين فهيم، مرجع سابق، ص 133
30-شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق، ص26
31- ناجي عبد الجبار، مرجع سابق، ص47
32-ادوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، مرجع سابق، ص44
33- حسين فهيم، مرجع سابق، ص146
34-شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق، ص229
35-حسين فهيم، مرجع سابق، ص 153-154
36-شارلوت سيمور سميث، ص90
37 حسين فهيم، ص 181- 194
38 شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق ص342
39 المرجع نفسه ، ص12
40 محمد محمود زقزوق، مرجع سابق، ص55